المبحث الثالث

الدلالة على النفاذ بالإتيان دون المجيء

المبحث الثالث

الدلالة على النفاذ بالإتيان دون المجيء

يختلف الفعل « أتى » عن الفعل « جاء » بدلالته على نفاذ الآتى إلى المأتى إليه وإلمامه به ، يشهد لذلك ما ذكرناه عن أهل اللغة ، من دلالة المادة على البلوغ والنفاذ ، كمثل قولهم : رجل أتى : أى نافذ ، وتسميتهم ما ينتهى إليه جرى الخيل ميناء ومبداء .

وجاء فى اللسان « يقال : مضى فى الأمر مضاء نفذ ، وأمضى الأمر أنفذه ، وأمضيت الأمر أنفذته ، وفى الحديث : ليس لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت [1] ، أى أنفذت فيه عطاءك ، ولم تتوقف فيه ، ومضى السيف مضاء « قطع » [2] .

وذكر الرمانى فى معرض حديثه عن الترادف بين الكلمات الإتيان مع مصادر تتصل كلها بهذا المعنى و وهى : « الغشيان ، والزيارة والإلمام ، والطروق ، والإتيان » [3] .

ومما يؤكد وجود الفرق بين الفعلين اعتبار كل واحد منهما بما يقابله ، ذكر الزركشى أن « ـ أتى ـ يقابله الفعل « مضى » و « جاء » يقابله الفعل « ذهب » [4] .

وقد قابل القرآن الكريم فى الاستعمال بين « ذهب » و « جاء » .

[٢٦٥] قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [5] .

[٢٦٦] وقال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [6] .

---

(١) هذا جزء من حديث حسن صحيح جاء فى سنن الترمذى (الجامع الصحيح) عند تفسير السورة رقم ١١٢ جـ ٥ ص ١١٧ .

(٢) لسان العرب : ٤٢٢٢ .

(٣) كتاب الألفاظ المترادفة : ٤١

(٤) البرهان : ٤ / ٨٠ .

(٥) هود : ٧٤ .

(٦) الأحزاب : ١٩ .

ولم يقابل القرآن الكريم الإتيان بالذهاب ، وإن كان قابله بالإذهاب ، مرادا به إهلاك الناس ـ فى الآيات الآتية :

٢٧٥- قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ (١) .

٢٧٦- وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) .

٢٧٧- وقال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٣) .

ووجه مقابلة الإتيان بالإذهاب فى الآيات ـ والله أعلم ـ أن الإذهاب يدل على الإزالة والإهلاك ، والإزالة غاية المضى فى الذهاب فتم بذلك حسن المقابلة بين الإذهاب والإزالة وبين الإتيان بخلق جديد ، وإنفاذ وعد الله فيه .

وتأسيا على ما سبق نفقه أن الإتيان نفاذ حركة المجىء ، والمضى نفاذ حركة الذهاب ، كما أن مراعاة الفرق بين الفعلين : « أتى » و « جاء » يرجع إليها إحكام اختلاف مجيئهما فى القرآن الكريم ، خاصة عندما يتفقان فى إسنادهما إلى شىء واحد .

يجلى لنا ذلك الشواهد الآتية من قصة موسى عليه السلام :

[٩] قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

[١٠] وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (٥) .

[١١] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ،

---

(١) النساء : ١٣٣ .
(٢) إبراهيم : ١٩ .
(٣) فاطر : ١٦ .
(٤) النمل : ٧ ، ٨ .
(٥) طه : ٩ - ١٢ .

قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

ذهب أبو حيان عند تفسيره هذا الشاهد الأخير إلى عدم المنافاة بين تنوع المنادى به في الآيات ، وأرجعه إلى حكاية بعض ما جاء في القصة في سورة دون أخرى .

قال : « جاء في طه ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ وفي النمل ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ وهنا ـ القصص ـ ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ ﴾ ولا منافاة ؛ إذ حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء » (٢).

لكنه لم يذكر هو ولا غيره وجه اختلاف استعمال الفعلين « جاء » و « أتى » في المواضع الثلاث ، وأنهم يرون ترادف الفعلين على المعنى ، وأن الإتيان بأحدهما مرة ، وبالآخر أخرى ؛ لتنويع العبارة .

ونحن نذهب إلى أن الوجه في مجيء الفعل « جاء » في سورة النمل ـ والله أعلم بمراده ـ هو إفادة معناه : وهو الدلالة على عدم النفاذ إلى النار ، ومعرفة حقيقتها . يدل على ذلك سياق الكلام ؛ إذ إن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاء ولم ينفذ إليها ، سمع عند ذاك مباركة الله تعالى ـ النار ومن حولها . فلم يزل للنار ذكر ؛ لأنه لم ينفذ إليها فيتعرف على حقيقتها ، ومازال هو ممن حولها .

أما الفعل « أتى » في سورتي : طه والقصص ـ فللدلالة على نفاذه عليه السلام ـ إلى المكان الذي كان يظن به ناراً ، والسياق فيهما يختلف عنه في سورة النمل ؛ فلم تذكر النار مع الفعل « أتى » لتحقق نفاذه ولوغه إلى المكان ، وقد اختلف النداء هنا مع « أتى » عن النداء هناك مع « جاء » . فقد نودي هنا بالحقيقة ﴿ .. نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وغير خفي أن الأمر بخلع نعليه لا يكون إلا عند نفاذه ، وصيرورته بالوادي المقدس طوى .

وفي سورة القصص ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فقد صار عليه السلام ـ في الوادي ، ونودي من شاطئه من الشجرة بأن ما رأيته ليس ناراً ، وإنما أنا الله رب العالمين .

(١) القصص : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) البحر المحيط : ١١٧/٧ .

وتجلى هذه الحقيقة لموسى عليه السلام ـ لم يكن إلا بعد نفاذه وتمكنه من إدراكها . والله أعلم .

وسياق القصة بما فيه من تنوع النداء نفقه منه أن موسى ـ عليه السلام ـ نودى أكثر من مرة ، نودي عندما تحرك وجاء إلى النار دون أن ينفذ إليها ، وكان ممن حولها لقوله تعالى : ﴿ أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين ﴾ مع كمال التنزيه لله رب العالمين أن يحيط به شيء أو وصف ، ومرة عندما بلغ إليها ، ونفذ في المكان المبارك الذى تجلى الله عليه وعم فيه نوره . فعندئذ لم يكن ثمة نار ، ونودى « إني أنا ربك » ـ « إني أنا الله رب العالمين » فليس الأمر كما ظننت قبل أن تبلغ المكان : أن فيه ناراً ، بل ما رأيت ثم غشاك هو نورى الذى تجلى على المكان الذى أنت فيه ﴿ فاخلع نعليك ، إنك بالواد المقدس طوى ﴾ .

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

ومن الشواهد الدالة على أن « جاء » لا يدل على النفاذ ، خلافا للفعل « أتى » ما يأتى :

[٢٥٦] قال تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ (١) .

الآية بمقامها وسياقها واضحة فى أن « جاء » لا يدل على النفاذ والوصول إلى الغاية من حركة الفعل ؛ بدليل قوله تعالى : « فدخلوا عليه » إذ رتب على « جاء » بالفاء ما يدل على النفاذ ، وهذا يفهم أن الفعل « جاء » بدل على مجرد الحركة والحضور دون النفاذ إلى الغاية المقصودة من المجيء ، ونهاية القصد ، وترتيب الأحداث بالفاء : فدخلوا ... فعرفهم ... جلى الدلالة على ذلك .

[٢٥٧] قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (٢) .

مجازاة المجيء بقوله : « فتحت أبوابها » وقوله « وقال لهم خزنتها ... » .

---

(١) يوسف : ٥٨ .

(٢) الزمر : ٧١ ، ٧٢ .

والقول لهم : « ادخلوا أبواب جهنم .. » هذه كلها قرائن واضحة على أنهم لم ينفذوا بالمجيء إلى الغاية منه وهو دخول جهنم ، إذ لم يتحقق إلا بعد حصول كل ما ذكر . والله أعلم .

[٢٥١] وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) .

« إذا جاءوها » ولم يدخلوها بعد بقرينة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ... ﴾ فهم في موقف الاستقبال الكريم بفتح أبوابها استعداداً لمقدمهم ، وتلقى الملائكة لهم بالتحية ، ثم إعلامهم بما مَنَّ الله به عليهم ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ كل هذه شواهد واضحة على عدم النفاذ بالمجيء ، وهم يدخلون الجنة بعد الإذن لهم بالدخول ، ويقولون ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ اللهم برحمتك أكرمنا .

[٢٥٢] وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

من الواضح أن المجيء ليس فيه نفاذ ودخول جهنم ، لأن الشهادة مجازاة المجيء ومرتبة عليه ، والدخول والنفاذ فيها بعد الشهادة .

[٢٦٧] وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يفيد أن مجيئه به لم ينفذ إلى نهاية المقصود منه ؛ إذ لا يتحقق ذلك إلا بتقريبه إليهم .

[٤٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٤) .

---

(١) الزمر : ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) فصلت : ٢٠ .
(٣) الذاريات : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) هود : ٥٨ .

[٤٦] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (١) .

« جاء » فى الآيتين لا يدل على نفاذ ؛ لأنه لو دل على النفاذ لما كان لقوله : « نجينا » فائدة ؛ إذ لا معنى للنجاة بعد الوقوع ، والمعنى ـ والله أعلم ـ جاء حكمه بالعذاب ، فنجى الله أنبياءه وأتباعهم ، وأهلك الكافرين ، فنجاتهم قبل إنفاذ حكمة بالعذاب وبلوغه إليهم .

[٤٧] وقال تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٢) .

« قد جاء أمر ربك » أى قضاؤه وحكمه بالعذاب والإهلاك ، فهو ـ أى العذاب ـ نازل بالقوم لا محالة ، لا يرده جدال ولا دعاء (٣) .

فالعذاب لم ينفذ فيهم عند مجيء أمره به ـ وقوله تعالى: ﴿ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أى واقع بهم ، ونافذ ، لا يرده أحد ، فالإتيان مع النفاذ . « وقرأ عمرو بن هرم : « وإنهم أتاهم » بلفظ الماضى ، وعذاب فاعل به ، عبر بالماضى عن المضارع لتحقق وقوعه ، كقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ (٤) .

ويؤكد ما قلناه أننا نجد فى الشاهدين السابقين (هود ٥٨ – ٦٦) أن مجيء الأمر بالعذاب قد صاحبه الإخبار بنجاة الذين آمنوا بهود وصالح ؛ لكون مجيء العذاب لم ينفذ بعد . لكن لما كان المعنى فى الشاهد الذى نحن بصدده ـ والله أعلم ـ على الإخبار بمجيء والأمر بالعذاب ، ثم دفع ما قد ينتظر من النجاة ، وعدم بلوغ العذاب إليهم ـ اتبع المجيء بقوله : ﴿ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ لما فى الإتيان من نفاذ الأمر بالعذاب وبلوغه إليهم ، ووصفه بقوله « غير مردود » تأكيد لهذا النفاذ ، والله أعلم .

ومما يجتمع فيه مع السهولة النفاذ ، فيكون المناسب له الفعل « أتى » الأنباء والأحاديث ؛ إذ غايتها أن تسمع وتنفذ إلى المحدث بها .

---

(١) هود : ٦٦ .
(٢) هود : ٧٦ .
(٣) ينظر الكشاف : ٢٨٢/٢ .
(٤) البحر المحيط : ٢٤٥/٥ .

من ذلك :

[٨٧] قول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (١).

[٩٠] وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ (٢).

[٩٢] وقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (٣).

المعنى فى الآيات : هل بلغك ونفذ إلى علمك ما شأنه كيت وكيت ..

لكن قد يكون لمساق الكلام دلالة على أن الأنباء لم تنفذ إلى من جاءت إليهم ، مع ما فيها من شدة الإنذار والزجر ، وذلك مثل :

[٩٤] قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ، فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ (٤).

السياق هنا له دلالته على الصعوبة ، وعدم النفاذ ، أما الصعوبة فقوله : « ما فيه مزدجر » وأما عدم النفاذ فقوله : « فما تغنى النذر » فهذه الأنباء التى جاءتهم مع ما فيها من الزجر والتخويف وما يدفع إلى الاعتبار ـ لم تصل إلى عقولهم ؛ فاستبقوا أنفسهم على باطلهم وضلالهم ، حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وتختلف الآيات عن الأنباء من حيث إن غايتها المجىء إلى من تأتى إليهم ، ولا يتعين أن تبلغ فى نفوسهم مبلغ اليقين بها ، والنفاذ إليهم فيعملون بمقتضاها . إذ أكثر الخلق يمرون عليها وهم عنها معرضون ، لذلك كان المناسب لها الفعل « جاء » .

[٢٤٩] قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥).

رتب المعاندون الإيمان بالآية على المجىء بها ، وهذا واضح الدلالة على أن المجىء بالآية لا يتعين معه النفاذ ، ووصول أثرها إلى من جاءت إليهم بمجرد المجىء .

والاستفهام فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » لنفى علم المؤمنين بأن هؤلاء المعاندين سيؤمنون بالآيات عند مجيئها ؛ لأن نفوسهم طبعت على النكران والشرك .

وبهذا السياق المتضمن نفى إيمانهم ، وقولهم : « لئن جاءتهم آية » مع أن الآيات

---

(١) طه : ٩.
(٢) البروج : ١٧ .
(٣) سورة ص : ٢١ .
(٤) القمر : ٤ ، ٥ .
(٥) الأنعام : ١٠٩ .

قد جاءتهم فعلا وبكثرة يعتبر بها أولو الأبصار ، ومجيء « إن » مع المجزوم به على سبيل تجاهلهم للآيات التى جاءتهم ، وإتيانهم بالفعل « جاء » بصيغة الماضى .. كل ذلك إمعان فى التضليل ، ومحاولة لتغطية كفرهم بإظهار رغبتهم فى مجيء الآية التى جاءتهم فعلاً ، والتى لم تنفذ إليهم .

ومما هو من هذا القبيل فى دلالته على أن المجيء لا يتعين معه أن يترتب عليه ما هو سبب له ، وهو الإيمان ، ونفاذ الآيات إلى القلوب التى طبع الله عليها هذه الآية :

٢٧٨ - قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) .

ظاهر الآية يدل على أن مجيء الآيات لا يقتضى بلوغها إلى النفس والإيمان بها ، بدليل موقفهم منها بقولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رسل الله ﴾ .

لكن عندما يكون المقام للإخبار بوصول الآيات ونفاذها إلى نفوس بعض من أتت إليهم - فإنه يؤتى بالفعل « أتى » مراعاة للمراد فى هذا المقام .

[١٧٦] قال تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ ، أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (٢) .

فالوجه فى مجيء الفعل « أتى » فى هذا المقام - والله أعلم - الدلالة على نفاذ الآيات إليه ، وعلمه بها ، بقرينة قوله :

« فنسيتها » إذ لا نسيان إلا بعد علم بها ، ونفاذ ووصول إليه ، والتناسب بين حشره أعمى بعد أن كان بصيراً وبين نسيانه الآيات بعد علمه بها ونفاذها إلى عقله - واضح بين .

ومما هو آكد فى بيان كون المجيء لا يقتضى النفاذ والوصول إلى من جيء إليه الشاهد الآتى :

[١٣٤] قال تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) .

السياق واضح الدلالة على أن فيه فرقاً بين المجيء والإتيان من حيث النفاذ فى الإتيان

---

(١) الأنعام : ١٢٤ . (٢) طه : ١٢٦ . (٣) الأعراف : ١٠٥ ، ١٠٦ .

دون المجيء ، بدليل ترتب الإتيان على المجيء ، وتعليقه عليه ؛ لأن الشيء لا يعلق على نفسه .

أما الوجه في صحة هذا التعليق ، فهو كون المجيء دون نفاذ ، والإتيان فيه نفاذ ووصول إلى الغاية التي كان من أجلها المجيء .

قال الزمخشري : « فإن قلت : كيف قال له : « فأت بها » بعد قوله : « إن كنت جئت بآية » ؟ قلت : معناه : إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتني بها ، وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك » (١) .

وبهذا يتضح الفرق بين التعبير القرآني ، وبين ما إذا قال قائل :

إن كنت أتيت بآية فأت بها ؟ لأنه الفرق بين الإعجاز والفساد؛ لأن (أتيت الأولى) دلت على النفاذ والبلوغ بها إليه ، فيكون الأمر بالإتيان بها بعد ذلك لغوا فاسداً .

وكذلك لو وضع مكانهما الفعل « جاء » لأن المعنى لن يتغير مع وجود الفعل « جاء » في الجواب عن وجوده في الشرط ، وسيبقى الفساد قائماً .

ومن هذا القبيل ـ أيضاً ـ :

[١٣٥] قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

٢٧٩ – وقوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (٣) .

أي : أبلغنا إليه الرسالة وأعلماه إياها ، والتعبير بقوله : « جئناك » يدل على أن الآية معهما ، ولم يظهراها له بعد ، بدليل سياق الآية والسياق العام للقصة .

[٢٣٨] قال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

الآية كما هو رأي الأكثرين « خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ؛ وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة ، وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف ،

---

(١) الكشاف : ١٠١/٢ .

(٢) الشعراء : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) طه : ٤٧ .

(٤) الأنفال : ١٩ .

وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للقانى ، إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا ... » [1] .

والنصر قد جاءهم حقيقة ، بدليل الآية ، لكنه لم يصل إليهم ، وإنما نفذ إلى أهل الإيمان واستقر فيهم ، فالمجيء للفريقين ، لكن إتيانه وبلوغه إلى أهل الإيمان : الرسول ـ ﷺ ـ وصحبه .

يؤكد ذلك أن التهكم بالكافرين فى الآية بطريق الإخبار بأمر حق ، قد وقع على خلاف ما يرغبون ، وليس من قبيل المزح والكذب ـ حاشا لله أن يكون كلامه كذلك ـ فالفتح الذى طلبوه وانتظروه جاء فعلا لكن نفاذه بما فيه من الخير كان إلى المؤمنين . وهذا الفرق الدقيق فى إدراك المعنى منشؤه اختلاف الفعلين « جاء » و « أتى » فى الدلالة .

ومما هو واضح الدلالة على الفرق بين الفعلين الشاهد الآتى :

[١٠٣] قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [2] .

« فلما جاء » المجيء إلى قوم لوط دون نفاذ إليهم ، لأنهم قابلوا لوطا عليه السلام وأتوه بخصوص قومه ، فلما أنكرهم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وكذلك الوجه فى قولهم : « بل جئناك بما كانوا فيه يمترون » دون آتيناك لأنهم جاءوا إليه بعذاب خاص بقومه دونه ، فهو نافذ إليهم ومصيبهم ، لذا لا يناسبه أن يقال « أتيناك بما كانوا فيه يمترون » لأن نفاذه ليس إليه هو ، ولكن إلى قومه ، فهو عليه السلام مقصود بالمجيء دون الإتيان ، لكن عندما أخبروه بما هو له ، ونافذ إليه من الحق ، قالوا : « وأتيناك بالحق » أى بلغنا بالحق المنتهى عندك ، إذ هو كإخوانه المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ متلقى الحق ، والتصديق به . والله أعلم .

ولذلك نلحظ أنه عندما لا يكون للحق نفاذ إلى من يساق إليهم فإنه لا يؤتى بالفعل « أتى » وإنما يؤتى بالفعل « جاء » كما فى الآية الآتية :

[٧٨] قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [3] .

لا يخفى أن السؤال فى الآية ليس عن المجيء ؛ لأنه قد جاءهم ويعلمون ذلك ،

---

(١) البحر المحيط : ٤٧٨/٤ . (٢) الحجر : ٦١ ـ ٦٤ . (٣) الأنبياء : ٥٥ .

لكنه يتعلق بقيده وهو « بالحق » فهم يسألون عن الأمر الذى جاء به ، ولم يبلغهم ، ولم ينفذ إليهم ، لذا يسألون عن كونه حقاً أو لا ؟ لأن المجيء بالشيء لا يتعين معه بلوغه والنفاذه إلى من جيء به إليه ، بدليل سؤالهم عنه ، خلافا للإتيان ، فإنه يدل على التسهل والنفاذ إلى الغاية ، ويكون معه معرفة المأتى به ، وهذا واضح فى قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد .

٢٨٠ – قال تعالى : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (١) .

المجيء بالفعل « يأتى » مع السلطان يدعو إليه كون السلطان له من النفاذ إلى النفس ، والتمكن منها امتلاكها ، وعنده تقوم الحجة وتحسم الخصومة ، ويستوجب الوعد أو الوعيد كما فى الآية .

أما قوله « وجئتك .. » فإنه يدل على المجيء بالنبأ لكن لا يدل على نفاذه إلى سليمان ـ عليه السلام ـ وعلمه به ؛ ولذلك كشف له عنه ، وأنفذه إلى علمه بقوله : « إنى وجدت امرأة .... » .

ولذلك فالوجه ـ والله أعلم ـ أنه لا يسوغ الإتيان بالفعل « أتى » إلا بعد أن يكون قد وصله النبأ اليقين فعلا ، وعليه لو قلنا فى غير القرآن الكريم : إنى أتيتك بخبر يقين : إنى وجدت الأمر الفلانى كذا وكذا ـ كان ضربا من التعارض فى الدلالة ؛ لأن الإخبار بالإتيان لا يكون إلا بعد نفاذ العلم به ، ووصوله إليه .

ومما هو من هذا القبيل :

٢٨١ – قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) النمل : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) آل عمران : ٤٩ – ٥١ .

المجيء بالآية في الموضعين لم يبلغهم ولم يعرفوا حقيقته إلا بعد قوله في الموضع الأول : ﴿ أَنِّي أَخلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .... ﴾ وقوله في الموضع الثاني : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ... ﴾ لأن حقيقة الآية في كل موضع ما ذكر بعدها [١] .

ومن مواضع المجيء بالفعل « أتى » للدلالة على النفاذ إسناده إلى السلطان والحجة .

[١٢] قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [٢] .

[١٣] قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٣] .

﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ ـ في الآيتين ـ أي تمكن منهم ، وأزال شبهتهم ، لكن هذا السلطانَ لمَ يأتهم ولم ينفذ إليهم ، بل نفذ في قلوبهم الكبر ، وبلغ فيها مبلغه .

ومما يأتي معه الفعل « جاء » تارة ، والفعل « أتى » أخرى تبعاً لقرائن الأحوال والسياق ـ البأس والعذاب . من شواهد ذلك :

[٥٧] قول الله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [٤] .

قولَ الرجل المؤمن : « فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » واضح في أن مجيء الناس دون نفاذ إليهم ، بقرينة « ينصرنا » لأن النصر في هذه الحال يكون بمنع وقوع البأس ونزوله بهم ، وإلا لم يكن فيه نصر ، وطريق الدلالة على ذلك الإتيان بالفعل « جاء » .

ولذلك لا يستقيم أن يقول قائل : من ينصرنا من بأس الله إن أتانا ؟ لأن الإتيان فيه بلوغ ، ونفاذ ، والمام بالمأتي إليه ، فلا معنى إذا للسؤال عن النصر .

[٥٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [٥] .

الآية فيها توبيخ على ترك التضرع والالتجاء إلى الله تعالى ، عندما أدركوا أن البأس

---

(١) ينظر البحر المحيط : ٤٦٥/٢ وما بعدها . (٢) غافر : ٣٥ . (٣) غافر : ٥٦ .

(٤) غافر : ٢٩ . (٥) الأنعام : ٤٣ .

جاءهم ، ولما ينزل بهم ليقطع دابرهم . فقد كانوا فى حاجة إلى التضرع والرجوع إلى الله ، لكن حال بينهم وبين ذلك قسوة قلوبهم وكفرهم ، ولما كان التضرع قبل نفاذ العذاب ووقوعه كان المناسب عندئذ الإتيان بالفعل « جاء » .

[٨٥] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

تختلف هذه الآية عن الآية السابقة ؛ لأن فيها طلب الإخبار عمن يقع عليه الإهلاك والتدمير ، وينفذ فيه أمر الله بإتيان العذاب له بغتة أو جهرة فالاستفهام عنهم بعد وقوع العذاب ونفاذه ، وطريق الدلالة على ذلك الفعل « أتى » والله أعلم .

[٨٦] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢) .

الاستفهام الإنكارى هنا لإبطال أن يذهب أحدهم إلى استعجالَ العذاب بعد أن أتاهم فعلا، وألم بهم ؛ إذ لا يكون عند ذاك حيلة ولا شفاعة .

ومما هو دقيق المسلك إلى إدراك قرائن الأحوال والسياق ، ومعرفة وجه الإتيان بالفعلين مسندين إلى فاعل واحد الآيات الآتية :

٢٨٢ – قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٣) .

٢٨٣ – وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٤) .

٢٨٤ – وقال تعالى : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٥) .

الفعلان « أتى » فى الشعراء و « جاء » فى « ق » أسندا إلى فاعل واحد باعتبار عموم الموصول ، واتحاد الصلة التى مدلولها الإيمان بالله تعالى ، وتصفية القلب له . وعليه فالإتيان بكل واحد منهما لوجه يطلب بمساعدة قرائن الأحوال والسياق فى الشواهد الثلاثة :

أما مجىء الفعل « أتى » فى آية الشعراء فإنه أضبث بمكانه من الفعل « جاء » لأن الحديث فى الآية عن نفاذ إتيان إلى الله تعالى يوم القيامة بعد حركة دءوب فى الدنيا ، ومجاهدة طويلة إلى أن كان إلى ربه المنتهى .

---

(١) الأنعام : ٤٧ . (٢) يونس : ٥٠ . (٣) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٤) الصافات : ٨٣ ، ٨٤ . (٥) سورة ق : ٣٢ ، ٣٣ .

أما سياق آية الصافات ، فهو للحديث عن حركة الفعل فى الدنيا حركة لا ينظر فيها إلى النفاذ ، لأن الآية تجمل حركته التى تحدثت عنها الآيات التى سبقتها ، من بيان جهاد إبراهيم عليه السلام قومه ، ودعوتهم إلى عبادة الله ، وتنبيههم إلى خطأ ما يعتقدون من عبادة الأصنام والنجوم ، وغيرها ، مبينا أدلة حدوثها من التبدل والتغير ، ثم ذهابه إلى الأصنام وتكسيرها .. ثم قوله بعد كيدهم لهم : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » مريداً « بذهابه إلى ربه مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ، كما قال : إنى مهاجر إلى ربى » [1] .

والإتيان بالذهاب ـ دون المضى ـ مع المجىء فيه من التناسب ما لا يخفى ؛ لما فيهما من الدلالة على الحركة دون النفاذ ، وإن كان المجىء إلى الله تعالى قد ضرب مثلا .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : ما معنى المجىء بقلبه ربه ؟

قلت : معناه : أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه ، فضرب المجىء مثلا لذلك » [2] .

أما آية « سورة ق » فالفعل فيها يحكى حركة الحدث فى الدنيا ، والسعى فى مرضاة الله تعالى ، دون رؤية لنفاذ هذه الحركة إلى غايتها ؛ بدليل السياق ، وتضمنه كلمة « أواب » والأوب والرجوع من صفات المؤمنين فى الدنيا ، فهم يكثرون العودة والرجوع إلى الله تعالى ، والآية التى تدل على ختام حركتهم ، وإعلان فوزهم ، ونفاذهم إلى ثواب الطاعة ، ومجيئهم بقلب منيب ـ قوله تعالى : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » سورة ق ٣٤ ـ والله جل وعلا أعلم بمراده .

٢٨٥ – وقال تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [3] .

« حيث أتى » أى حيث بلغ الغاية بسحره ، ونفذ بتأثيره فى النفوس ، حتى « أوجس فى نفسه خيفة موسى » ولحكمة يعلمها الله جل وعلا ـ يترك الساحر يفرغ ما فى جعبته كله ، ويصل بكفره ومكره منتهاه ، حتى إذا ظن ضعفاء النفوس أن له الغلبة ،وأنه ظفر بما طلب ، أحبط الله سحره ، وثبت قلوب أهل الإيمان ، واندحر مع شيطانه واستحق القتل حيثما كان .

ولمادة « أتى » صلة بمعنى الغرابة ؛ إذا الأتىُّ هو الغريب ، والساحر يأتى بما فيه غرابة ، وبلوغ فى نفوس من يرونه ، عند ذلكَ يقع به الخسران ، والاندحار هالكاً خاسراً .

* * *

(١) الكشاف : ٣٤٧/٣. (٢) الكشاف : ٣٤٤/٣ . (٣) طه : ٦٩ .